بأي لغة يهطل المطر فوق المدن المعذبة " اندوتي روي"

- ترجمة: عناب علمان

مقدمة

الترجمة بوصفها إعادة كتابة

اندريه لوفيفر يصف الترجمة بأنها إعادة كتابة، لرفع مكانة المترجم ولتفادي القصور في مصطلح "ترجمة" نفسه. و يسعى هو و سوزان باسنيت في كتابهما المهم عن الترجمة المعنون ب " بناء الثقافات " لبناء الجسور داخل مجالات الترجمة و إقامة روابط بينّية تقيم الصلة داخل هذا المبحث و مجالات الدرس خارج إطاره، وهو مشروع القرن الحالي في مجال الترجمة بوصفه حقلًا بحثيًا مستقبلًا عند الباحثين باسنيت و لوفيفر اللذان قطعا شوطًا طويلًا في هذا المشروع منذ ثمانينيات القرن الماضي لكي تتخذ دراسات الترجمة توجها ثقافيًا و أن يتجه الباحثون نحو دراسات ثقافية لبناء ثقافات مشتركة ولكي نكتشف الآخر من خلال اللغة بواسطة الترجمة، فمن الآن وصاعدًا سوف تقوم الترجمات بحلول محل الأصول، كما يزعم الباحثان.

وبما أننا جميعًا - إلى حد ما - اكتسبنا حبّ الأدب من خلال قراءتنا لأعمال وقصص وروايات هي في الأصل ليست مكتوبة بلغتنا الأم، يكاد كل سؤال جدلي حول الترجمة أو قيمتها أنّ يكون بلا معنى.

لكن هل يمكن فعلًا ترجمة لغة ما إلى أخرى؟ رغم أن هذا سؤال بلا طائل، لنفس السبب؛ ما دمنا أحببنا بشدة عملًا هو في الأصل غير مكتوب بلغتنا الأم. أجاوب على هذا السؤال ،إنطلاقًا من تجربة شخصية بقراءات ثنائية لنفس الأعمال في لغتها الأم وأخرى مترجمة إليها أولًا و ثانيًا في محاولات لترجمة بعض النصوص الأدبية بأنني لا أعتقد ذلك بشكل حرفي. و من ثم ما الذي يُفقد - إبداعيًا - عندما نترجم نص ما أو عمل ما إلى لغة أخرى؟ لا شيء، إن كنّا أمام عملٍ تُرجمَ بصورة تنمّ عن مهارة فريدة للمترجم في نقل روح النص ،وأقول دومًا لإصدقائي، أنني نقلت هذا النص إلى العربية من خلال تخيّلي لإسلوب الكاتب الفعلي للنص فيما لو كانت اللغة العربية لغته الأم، و هذا بالطبع تخيُّل ناتج عن معرفة مسبقة بإسلوب الكاتب في لغته وبمعرفتي للغتي الأم؛ لذلك لا أستطيع الجزم أن ترجمة لغة ما ممكنة، لأن اللغة ليست ثُنائية بل إنفرادية، و كل ترجمة ما ليست سوى نفس روح السرد لكن بلغة مختلفة.

في العام ٢٠١٨ استضاف معهد جي سيبالد الكاتبة الهندية أروناتي روي لإلقاء محاضرة سنوية عن الترجمة الأدبية، عنوان المحاضرة الذي اختارته روي هو شذرة من كتاب التساؤلات لبابلو نيرودا :" بأي لغة يهطل المطر فوق المدن المعذبة؟" و بعد حديث طويل عن اللغة الأم و اللغة بوصفها سلطة و اللغة التي تطعَّم بلغة أو لغات أجنبية أخرى و الانفصام الثقافي الذي يحدث جراء ذلك والترجمة و تحديدًا ترجمات رواية وزارة السعادة القصوى في أكثر من ثمانية و ثلاثين لغة مختلفة،الرواية التي تقول روي بأنها كتبتها بلغات كثيرة داخل عقلها منها الإنجليزية و الأوردية و الملالايامية،و بسرد تاريخ اللغات الطويل المتنوع في بلد الكاتبة تجاوب روي على سؤال نيرودا الشائك تحت تهديد الخوارزميات بعد ما قال لنا الذكاء الاصطناعي اليوم بأنه يستطيع أن يكتب أعمال أدبية مميزة بلغات مختلفة ترجمتها لأعمال أدبية في لغات أخرى مختلفة أيضًا: ان المطر يهطل فوق المدن المعذبة فقط بلغة الترجمة.

بأي لغة يرحل الطير فوق المدن المعذبة؟

نص محاضرة دبليو جي سيبالد حول الترجمة الأدبية لأروندااتي روي، الخامس من يونيو، العام ٢٠١٨ ، المكتبة البريطانية.

بعد أسبوع من نشر روايتي الأولى"إله الأشياء الصغيرة" في جلسة قراءة كتاب في كالكوتا وقف أحد الحاضرين وبنبرة عدائية واضحة طَرح سؤالًا علي: هل هنالك أي كاتب قام بكتابة عمل فني مميز بلغة أجنبية؟ بلغة غير لغته الأم؟.

لم أدعِ بأنني قمت بكتابة "عمل فني مميز" لكنني مع ذلك فهمت غضبه تجاهي. أنا الكاتبة التي تعيش في الهند و تكتب بالإنجليزية والتي جذبت قدرًا سخيف من الإهتمام، إجابتي على سؤاله جعلته أكثر غضبًا. نابوكوف قلت له، كتب أعمال أدبية مميزة بلغة غير لغته الأم.

خرج ذلك الشخص غاضبًا من القاعة.

الإجابة الصحيحة لذلك السؤال اليوم ستكون بالطبع" الخوارزميات". أخبرونا أن الذكاء الاصطناعي بإمكانه كتابة أعمال فنية مميزة بأي لغة وبإمكانه أيضًا ترجمة هذه الأعمال إلى أعمال فنية مميزة في لغات أخرى، ومع اقتراب العصر الذي نعرفه ونعتقد أننا نفهمه بشكل غامض من نهايته، ربما نحن، حتى أكثرنا إمتيازًا، مجرد مجموعة من البشر الزائدين عن الحاجة الذين تجمعهم هنا إهتمامات غامضة باللغة التي يولدها زملاؤهم الزائدون عن الحاجة، بعد أسابيع قليلة من حادثة "اللغة الأم و العمل الفني المميز" تلك، كنتُ في برنامج إذاعي مباشر في لندن. الضيف الآخر كان مؤرخ إنجليزي، قام بتأليف قصيدة مدح للإمبريالية البريطانية إجابة إلى سؤال طرحه المحاور وعقَّب على ذلك في إشارة إليَّ بإستعلاء قائلًا : "حتى أنت"،"حقيقة أنك تكتبين باللغة الإنجليزية و هذه إشادة بالامبراطورية البريطانية.

لم أكن مُعتادة على البرامج الإذاعية في ذلك الوقت، بقيتُ صامتة لبعض الوقت كما ينبغي أن يفعل المتوحش المتحضر حديثًا. ولكن بعد ذلك فقدتُ أعصابي نوعًا ما، وقلت بعض الأشياء الجارحة للغاية. كان المؤرخ مستاءً، وبعد العرض أخبرني أنه كان يقصد ما قاله كمجاملة، لأنه أحبّ كتابي. سألته عما إذا كان يشعر أيضًا أن موسيقى الجاز والبلوز وجميع الكتابات والشعر الافرو-امريكي كان في الواقع تكريمًا للعبودية. وما إذا كان كل أدب أمريكا اللاتينية هو تكريم للإستعمار الإسباني والبرتغالي.

بالرغم من غضبي، في كلا المناسبتين لم تكن إجاباتي كافية بل عبارة عن ردات فعل دفاعية لأن كلا من الحادثتين تطرقتا إلى مجموعة من الأسئلة الحارقة - الإستعمار ، القومية، الأصالة والنخبوية، الطائفية، التعصب والهوية الثقافية - وكلها نقاط ضغط متنازعة على الجهاز العصبي لأي كاتب يستحق أن يكون كاتبًا. مع ذلك؛ فإن إعادة صِياغة اللغة بالطريقة التي استخدمها كلا الرُجلين جعلت اللغة عاجزة عن الكلام.

عندما يحدث ذلك، كما يحدث عادةً في مثل هذه المناقشات، فإن ما كُتب بالفعل يتوقف عن الأهمية. وهذا ما وجدت صعوبة في تقبله. ومع ذلك كنت أعرف - كنت أعرف - أن اللغة هي أكثر الأشياء خصوصية وأكثرها عمومية في الوقت نفسه. كانت التحديات التي أُلقيت في وجهي عادلة ومنصفة. ومن الواضح، بما أنني ما زلت أتحدث عنها، ما زلت أفكر فيها.

ليلة تلك القراءة في كالكوتا، مدينة أبي المغترب وكالي، الإلهة الأم ذات اللِسان الأحمر الطويل والأذُرع الكثيرة، استغرقت في التساؤل عن ماهية لغتي الأم. ما هي اللغة الصحيحة سياسيًا والمناسبة ثقافيًا والملائمة أخلاقيًا التي يجب أن أفكر وأكتب بها؟ وخطر لي أن أمي كانت في الواقع كائنًا فضائيًا، ربما بأذرع أقل من كالي ولكن بألسِنة كثيرة. الإنجليزية بالتأكيد واحدة منها. لقد اتسعت لغتي الإنجليزية وتعمقت بإيقاعات و ألسنة أمي الغريبة الأخرى.)أقول غريبة لأنه لا يوجد الكثير مما هو عضوي فيها. فقد تم استيعاب جسدها على شكل أمة أولًا بعنف، ثم تم تقطيع أوصالها بعنف بواسطة ريشة بريطانية إمبريالية. وأقول غريبة أيضًا لأن العنف الذي مورس بإسمها على أولئك الذين لا يرغبون في الانتماء إليها (الكشميريون على سبيل المثال)، وكذلك على أولئك الذين يرغبون في الانتماء إليها (المسلمون الهنود والداليت على سبيل المثال)، يجعلها أمًا غير أمومية على الإطلاق.(

كم عدد ألسنتها، اللغات المتحدث بها في الهند؟، رسميًا حوالي 780 لغة تقريبًا، اثنتان وعشرون منها فقط معترف بها رسميًا في الدستور الهندي، بينما تنتظر ثمان وثلاثون لغة أخرى الحصول على هذه الصفة. ولكل منها تاريخها الخاص في الإستعمار. هناك عدد قليل من الضحايا الخالصين و الجناة الخالصين. لا توجد لغة وطنية، ليس بعد. تم تعيين اللغتين الهندية والإنجليزية "لغتين رسميتين". ووفقًا لدستور الهند)الذي يجب أن نلاحظ أنه مكتوب باللغة الإنجليزية(، كان من المفترض أن يتوقف إستخدام الدولة للغة الإنجليزية للأغراض الرسمية بحلول 26يناير1965 ، أي بعد خمسة عشر عامًا من دخول الدستور حيز التنفيذ. وكان من المفترض أن تحل محلها اللغة الهندية المكتوبة بالخط الديفاناغاري[1]. ومع ذلك، قوبلت أي خطوة جادة نحو جعل اللغة الهندية اللغة الوطنية بأعمال شغب في المناطق غير الناطقة بالهندية في البلاد.)تخيل محاولة فرض لغة واحدة على أوروبا بأكملها.(لذا، إستمرت اللغة الإنجليزية في تعزيز قاعدتها بشكل غير رسمي وغير رسمي وبصورة غير رسمية وبصورة إفتراضية.

الشعور بالذنب في هذه الحالة هو شعور غير مفيد. فالهند كدولة، دولة قومية، كانت فكرة بريطانية. لذا، فإن فكرة اللغة الإنجليزية جيدة أو سيئة مثل فكرة الهند نفسها.

إن الكتابة أو التحدث باللغة الإنجليزية ليست إشادة بالإمبراطورية البريطانية، كما حاول المؤرخ الإمبراطوري البريطاني أن يوحي لي، بل هي حل عملي للظروف التي أوجدتها الإمبراطورية البريطانية.

الخريطة اللغوية الإرسالية المعمدانية للهند (1846)

من الناحية الجوهرية، لا تزال الهند من نواحي كثيرة إمبراطورية متماسكة بقواتها المسلحة وتُدار من دلهي التي تعتبر بالنسبة لمعظم رعاياها بعيدة كأي متروبول أجنبي. ولو كانت الهند قد انقسمت إلى جمهوريات لغوية، مثل دول أوروبا، فربما كان من الممكن التخلص من اللغة الإنجليزية. ولكن حتى مع ذلك، ليس في الواقع، ليس في أي وقت قريب من الممكن حدوث ذلك. وفي ظل الوضع الراهن، فإن اللغة الإنجليزية، على الرغم من أن أقلية صغيرة)والتي لا تزال تعد بعشرات الملايين(تتحدث بها، هي لغة التنقل والفرص والمحاكم والصحافة الوطنية والأخوة القانونية والعلوم والهندسة والاتصالات الدولية. إنها لغة الإمتيازات والإقصاء. وهي أيضًا لغة التحرر، وهي اللغة التي تم فيها إدانة الامتيازات ببلاغة. كتاب "القضاء على الطبقية" للدكتور ب. ر. أمبيدكار، وهو الكتاب الأكثر قراءةً وترجمة على نطاق واسع، وهو أكثر الكتب التي أدانت النظام الطبقي الهندوسي، وقد كُتب باللغة الإنجليزية. فقد أحدث ثورة في النقاش حول أكثر أنظمة الظلم المؤسسي وحشيةً التي ربما تكون الأكثر وحشية في أي مجتمع على الإطلاق. كم كانت الأمور ستختلف لو تمكنت الطوائف المحظوظة من احتواء كتابات أمبيدكار بلغة لايمكن أن يقرأها سوى طائفته ومجتمعه. وبإلهام منه، يرى العديد من نشطاء الداليت اليوم أن حرمان المحرومين من التعليم الإنجليزي الجيد باللغة الإنجليزية (بإسم القومية أو مناهضة الإستعمار) هو إستمرار للتقليد البراهمي المتمثل في حرمان التعليم ومحو الأمية - أو ببساطة الحق في طلب المعرفة ومراكمة الثروة - للأشخاص الذين يعتبرونهم "شودرا" و"منبوذين". ولإثبات هذه النقطة، قام الباحث الداليت شاندرا بهان براساد في عام 2011 ببناء معبد قروي لآلهة الداليت في اللغة الإنجليزية. وقال: "إنها رمز نهضة الداليت"."سنستخدم اللغة الإنجليزية لنرتقي السلم ونصبح أحرارًا إلى الأبد".

أنغريزي ديفي، إلهة اللغة الإنجليزية كما تخيلها شاندرابهان براساد بينما تمضي الكّرة المدمرة للنظام الإقتصادي العالمي الجديد في عملها، فتدفع بعض الناس نحو النور، وتدفع آخرين إلى الظلام، تلعب "المعرفة" و"عدم المعرفة" باللغة الإنجليزية دورًا كبيرًا في توزيع النور والظلام، وعلى هذه الفسيفساء المحيرة للعقل تحاول الإدارة القومية الحالية الهندوسية الحاكمة تطعيم رؤيتها "أمة واحدة، دين واحد، لغة واحدة". ومنذ إنشائها في عشرينيات القرن العشرين، كانت الصرخة الحاشدة لراشتريا سوايامسيفاك سانغ، وهي الشركة القابضة للقومية الهندوسية -وهي المنظمة الأقوى في الهند اليوم- هي"هندي-هندوسي-هندوستاني".ومن المفارقات أن الكلمات الثلاث مشتقة من كلمتي "الهند" العربية والفارسية "الهندوستان"، وهو اسم "ستان) "مكان) - ولا ينبغي الخلط بينه وبين "ستان" التي تعني أيضًا "مكان" باللغة السنسكريتية - التي تقع شرق نهر السند. "الهندوس" هم الشعوب (وليس الديانة) التي كانت تعيش هناك. قد يكون من المبالغة أن نتوقع أن تتعلم جمعية آر إس إس من تجارب الدول الأخرى، ولكن عندما حاولت جمهورية باكستان الإسلامية فرض اللغة الأردية على مواطنيها الناطقين بالبنغالية في باكستان الشرقية، انتهى بها الأمر بخسارة نصفها. وحاولت سريلانكا فرض اللغة السنهالية على مواطنيها التاميل، ودفعت ثمن ذلك عقودًا من الحرب الأهلية الدموية.

كل هذا لنقول إننا نعيش ونعمل (ونكتب) في أرض معقدة، لم يحسم فيها شيء ولن يحسم فيها شيء أبدًا. لا سيما مسألة اللغة.

من المؤكد أن سوزان سونتاغ كانت تدرك بعضًا من هذا التعقيد عندما ألقت محاضرة دبليو جي سيبالد في عام 2002. كان عنوان محاضرتها "العالم بوصفه الهند: الترجمة كجواز سفر داخل مجتمع الأدب."ما سأتحدث عنه هو "الترجمة كإستراتيجية للكتابة في مجتمع بلا جوازات سفر".

بعد عشرين عامًا من نشر رواية "إله الأشياء الصغيرة"، انتهيت من كتابة روايتي الثانية "وزارة السعادة القصوى". ربما لا ينبغي لي أن أقول هذا، ولكن إذا كان من الممكن أن يكون للرواية عدو، فإن عدو هذه الرواية هو فكرة "أمة واحدة، دين واحد، لغة واحدة". عندما كنت أؤلف صفحة غلاف المخطوطة، كنت أميل إلى كتابة اسم المؤلف بدلًا من إسم الكاتب : "مترجمة من النسخة الأصلية لأروندااتي روي." الوزارة هي رواية مكتوبة باللغة الإنجليزية ولكنها متخيلة بعدة لغات. وقد كانت الترجمة كشكل أساسي من أشكال الإبداع محورية في كتابتها (وهنا لا أقصد ترجمة ما هو غير مترجم وما قبل اللغة إلى كلمات). فبغض النظر عن اللغة (واللغة الأم) التي كُتبت بها الوزارة (وباللغة الأم)، كان لا بد من تخيل هذه القصة الخاصة عن هؤلاء الناس بالذات في هذا الكون بالذات بعدة لغات. إنها قصة تنبثق من محيط من اللغات، حيثُ يسبح نظام بيئي يعج بالكائنات الحية - أسماك اللغات الرسمية، والرخويات غير الرسمية - والرخويات غير الرسمية، وأسراب وامضة من أسماك الكلمات - بعضها ودود مع بعض، وبعضها الآخر عدائي علانية، وبعضها آكل لحوم صريح. لكنها تتغذى جميعها مما يوفره المحيط. وجميعهم، مثلهم مثل الناس في الوزارة، ليس لديهم خيار سوى التعايش والبقاء على قيد الحياة ومحاولة فهم بعضهم البعض. بالنسبة لهم، الترجمة ليست فنًا أدبيًا راقيًا يؤديه متعددو اللغات المتمرسون. الترجمة هي الحياة اليومية، وهي نشاط في الشارع، وهي جزء ضروري بشكل متزايد من عدة الناس العاديين للبقاء على قيد الحياة. وهكذا، في هذه الرواية ذات اللغات المتعددة، ليس المؤلف وحده، بل الشخصيات نفسها التي تسبح في محيط من النقص الرائع، والتي تترجم بإستمرار من أجل بعضها البعض وإليها، والتي تتحدث بإستمرار عبر اللغات، والتي تدرك بإستمرار أن الأشخاص الذين يتحدثون نفس اللغة ليسوا بالضرورة هم الذين يفهمون بعضهم البعض بشكل أفضل.

لقد تُرجم كتاب "وزارة السعادة القصوى" - ويجري الآن - إلى ثمانٍ وأربعين لغة. كان على كل مترجم من هؤلاء المترجمين أن يتعامل مع لغة مشبعة بالعديد من اللغات بما في ذلك، إذا جاز لي أن أصوغ كلمة، العديد من أنواع اللغة الإنجليزية)ربما تكون كلمة "سوسيو-إنتليكتس" هي الكلمة الصحيحة، لكنني سأبقى مع كلمة "إنجليش" لأنها أسوأ بشكل لذيذ(وترجمته إلى لغة أخرى مشبعة بالعديد من اللغات. أستخدم كلمة "مشبع" بحذر، لأنني لا أتحدث عن مجرد نص يحتوي على اقتباسات أو كلمات بلغات أخرى على سبيل التحايل أو المجاز، أو نص يلعب لعبة بيتر سيلرز للسخرية من الإنجليزية الهندية، بل عن محاولة لخلق صحبة لغات بالفعل.

جزء من رف الكتب المؤلفة من الترجمات - تصوير مايانك أوستن صوفي، ترجمات وزارة السعادة القصوى، من بين الترجمات الثمانية والأربعين ترجمة، هناك ترجمتان من الأردية والهندية. وكما سنرى بعد قليل، فإن حقيقة الإضطرار إلى تسمية الهندية والأردية كلغتين منفصلتين ونشرهما كل على حدة في كتابين منفصلين بنصين منفصلين، تنطوي على تاريخ ينطوي على تاريخ مطوي في قصة "الوزارة". ونظرًا لمكان الرواية، فإن الترجمتين الهندية والأردية هما في جزء منهما نوع من العودة إلى الوطن. وسرعان ما علمت أن ذلك لم يسهل مهمة المترجمين. ولإعطاء مثال على ذلك: يلعب جسم الإنسان وأعضاؤه دورًا مهمًا في رواية "الوزارة". وجدنا أن الأوردية، تلك اللغة الأكثر روعة من بين اللغات، والتي تحتوي على كلمات للحب أكثر من أي لغة أخرى في العالم ربما، لا توجد فيها كلمة للمهبل او لوصفه او تسميته. هناك كلمات مثل كلمة "فرج" العربية التي تعتبر قديمة وقديمة إلى حد ما، وهناك كلمات ملطفة تتراوح معانيها بين "الجزء المخفي" و"فتحة التنفس" و"طريق الرحم". وأكثرها شيوعًا هو "عورة العورة". عورة المرأة كما ترون، لدينا مشكلة بين أيدينا. قبل أن نتسرع في إصدار الأحكام، يجب أن نتذكر أن كلمة "بودندا" باللاتينية تعني "ما يجب أن يشعر المرء فيه بالعار". أما في الدنماركية، كما أخبرني المترجم، فالعبارة هي "شفاه العار". لذا، فإن آدم وحواء على قيد الحياة وبصحة جيدة، وأوراق التين في مكانها.

على الرغم من أنني أميل إلى أن أتحدث أكثر عن مشاهدة ملذات وصعوبات ترجمة كتاب "وزارة السعادة القصوى" إلى لغات أخرى، أكثر من الحديث عن الترجمات "ما بعد الكتابة"، إلا أن الترجمة "ما قبل الكتابة" هي التي أريد أن أتحدث عنها اليوم. لم يأتي أي من ذلك من خطة مدروسة وموجودة مسبقًا. لقد عملت بالفطرة البحتة. فقط أثناء التحضير لهذه المحاضرة بدأتُ أدرك حقًا مدى أهمية إقناع اللغات بالتحول وإفساح المجال لبعضها البعض. قبل أن نغوص في محيط النقصان ونغرق في دوامات ثاراتنا التاريخية وحروبنا اللغوية الدموية، ولكي أعطيكم فكرة تقريبية عن التضاريس، سأرسم لكم بسرعة الطريق الذي وصلت به إلى رقعتي الخاصة من الشاطئ.

والدتي مسيحية سورية من كيرالا - الطرف الجنوبي من شبه الجزيرة الهندية الناطق بالمالايالامية. كان والدي بنغاليًا من كالكوتا، حيثُ إلتقى الاثنان. في ذلك الوقت، كان في زيارة من آسام، حيثُ كان يعمل مساعد مدير لحديقة شاي. كانت اللغة المشتركة بينهما هي الإنجليزية. وُلدت في مستشفى الإرسالية الويلزية في بلدة شيلونغ الصغيرة، التي كانت تقع في آسام آنذاك، وهي الآن عاصمة ولاية ميغالايا. وقبيلة التلال السائدة في شيلونغ هي قبيلة خاسي، ولغتهم هي لغة أوستروآسيتية مرتبطة بالكمبودية والمون. وقد بذل المبشرون الويلزيون في شيلونغ، مثلهم مثل المبشرين في جميع أنحاء الهند، جهودًا كبيرة لتحويل اللغات الشفوية إلى لغات مكتوبة، وذلك في المقام الأول من أجل ترجمة الكتاب المقدس وطباعته. وكجزء من حملتهم الخاصة للحفاظ على اللغة الويلزية ضد الموجة العارمة من اللغة الإنجليزية، حرصوا على أن تكون كتابة لغة خاسي بالخط الروماني في حين أن كتابتها بالخط الروماني مشابهة لكتابة اللغة الويلزية.

مستشفى الإرسالية الويلزية الذي يسمى الآن مستشفى إتش غوردون روبرتس، شيلونغ. صورة بانورامية أعدتها الإرسالية لجمع التبرعات للمستشفى في عام 1939، قضيت أول عامين من حياتي في آسام. حتى قبل ولادتي، كانت علاقة والديّ قد انهارت بشكل لا رجعة فيه. وبينما كانا يتشاجران، تم إرسالي إلى مساكن عمال مزارع الشاي، حيثُ تعلمت لغتي الأولى التي أخبرتني أمي أنها كانت نوعًا من اللغة الهندية. كان (ولا يزال) عمال الشاي، الذين يعيشون على أجور الجوع، من بين أكثر الناس تعرضًا للقمع والإستغلال الوحشي في الهند. فهم ينحدرون من سلالة السكان الأصليين من قبائل شرق ووسط الهند، الذين تم تفكيك لغاتهم الخاصة واستيعابها في لغة الباغانية، والتي تعني حرفيًا "لغة الحديقة". وهي مزيج من الهندية والأكسومية ولغاتهم الخاصة. كانت الباغانية هي اللغة التي تحدثتُ بها لأول مرة. كان عمري أقل من ثلاث سنوات عندما انفصل والداي. انتقلنا أنا وأمي وأخي إلى جنوب الهند - أولًا إلى أوتاكاموند في تاميل نادو (لم يكن مرحب بنا) ثم إلى منزل جدتي في أيمنيم، القرية الواقعة في ولاية كيرالا حيثُ تدور أحداث رواية "إله الأشياء الصغيرة". وسرعان ما نسيت باغانيا.)بعد سنوات عديدة، عندما كنتُ في العشرينات من عمري، التقيتُ للمرة الأولى بوالدي المبتهج ولكن المدمن على الكحول بشكل محزن. كان السؤال الأول الذي طرحه عليّ هل ما زلت تستخدمين لغة سيئة؟ لم يكن لدي أي فكرة عما كان يقصده. قال لي: "أوه، لقد كنتِ طفلة صغيرة بذيئة اللسان"، ثم استطرد لي كيف أنه عندما قام عن طريق الخطأ بلمس ذراعي بسيجارة مشتعلة حدقت في وجهه ونعته بـ "تشو... يا" - وهي كلمة بذيئة في عدة لغات، بما في ذلك الباجانية التي اشتق أصلها من الكلمة اللاتينية pudenda.

عندما كنت في الخامسة من عمري، أسست والدتي التي لا تملك مالًا على الإطلاق مدرستها الخاصة عن طريق استئجار قاعة صغيرة تابعة لنادي الروتاري في بلدة كوتايام، التي تبعد مسافة قصيرة بالحافلة. كنا نقوم كل مساء بتوضيب طاولاتنا وكراسينا ونضعها مرة أخرى في الصباح. لقد نشأت على نظام غذائي ثقافي يتضمن شكسبير وكيبلينج وكاتاكالي (أحد أشكال الرقص في المعبد) وفيلم صوت الموسيقى، بالإضافة إلى السينما المالايالامية والتاميلية. وقبل أن أبلغ سنوات مراهقتي، كان بإمكاني تلاوة مقاطع طويلة من شكسبير، وإنشاد الترانيم المسيحية على الطريقة الملايالية الحزينة، وتقليد ملهى من فيلم تاميلي بعنوان يسوع الذي تؤديه مريم المجدلية لإغواء يسوع قبل أن تبدأ الأمور تسوء بشكل سيء لكليهما.

نادي الروتاري في مدينة كوتايام - تصوير دايانيتا سينغ

ومع نجاح مدرستها الصغيرة، أصدرت والدتي، التي كانت قلقة على مستقبلي المهني، قرارًا بأن أتحدث باللغة الإنجليزية. ومنذ ذلك الحين تم عكس سياسة اللغة الإنجليزية في مدرسة والدتي تمامًا. والآن، يتم تدريس اللغة المالايالامية فقط في الصفوف. في الإعدادية، حتى في أوقات راحتي. في كل مرة كنتُ أُضبط فيها وأنا أتحدث المالايالامية كنت أُجبر على كتابة ما كان يُسمى بالفرض - سأتحدث بالإنجليزية، سأتحدث بالإنجليزية - ألف مرة. قضيتُ ساعات طويلة من العديد من ساعات بعد الظهر في القيام بذلك (حتى تعلمت إعادة تدوير فرضي). في سن العاشرة، ذهبت إلى مدرسة داخلية في تاميل نادو التي أسسها السير هنري لورانس، البطل البريطاني في "التمرد الهندي" عام 1857، الذي مات دفاعًا عن إقامة لوكنو. (وهو الذي ألّف مدونة قانونية في البنجاب تحرم الساتي والتضحية بالنفس من قبل الأرامل ووأد البنات. قد يكون من الصعب قبول ذلك، فالأمور ليست دائمًا بالبساطة التي تُصنع بها. كان شعار مدرستنا "لا تستسلم أبدًا". اعتقد الكثير منا نحن الطلاب (دون أساس حقيقي) أن ما قاله لورانس في الواقع هو "لا تستسلم أبدًا للكلاب الهندية". في المدرسة الداخلية، بالإضافة إلى المالايالامية والإنجليزية، تعلمت اللغة الهندية. كان مدرس اللغة الهندية الخاص بي مالاياليًا علّمنا نوعًا من الهندية في نوع من المالايالامية. لم نفهم شيئًا. تعلمنا القليل جدًا.

في السادسة عشرة من عمري، أنهيتُ دراستي ووجدت نفسي وحدي على متن قطار متجه إلى دلهي، التي كانت تبعد ثلاثة أيام وليلتين. (لم أكن أعلم حينها أنني سأغادر المنزل إلى الأبد). كنتُ ذاهبة للالتحاق بمدرسة الهندسة المعمارية. كنت مسلحة بجملة واحدة من اللغة الهندية التي تذكرتها بطريقة ما. كانت من درس يسمى سواميبهاكت كوتيا عن كلبة مخلصة تنقذ طفل سيدها من أفعى عن طريق لدغها هي نفسها بدلًا من ذلك. كانت الجملة سوباه أوث كي ديخا إلى كوتيا ماري بادي ثي. "عندما استيقظتُ في الصباح، كانت الكلبة ترقد ميتة". خلال الأشهر القليلة الأولى التي قضيتها في دلهي، كانت هذه الجملة هي مساهمتي الوحيدة في أي محادثة أو سؤال يوجه إليّ باللغة الهندية. وعلى مر السنين، كان هذا هو الأساس النحيل الذي بنيت عليه مفرداتي الهندية بعد أن أصبحت لغتي المالايالامية صدئة.

كان من الواضح أن نزل مدرسة الهندسة المعمارية كان مأهولًا بأشخاص من خارج المدينة. معظمهم من غير الناطقين بالهندية. البنغاليون والآشاميون والناجا والمانيبوريون والنيباليون والنيباليون والسيكيميون والغوان والتاميليون والمالاياليون والأفغان. رفيقي الأول في السكن كان كشميري، وكان رفيقي الثاني نيبالي. وكان أقرب أصدقائي من أوريسا. لم يكن يتحدث الإنجليزية ولا الهندية. خلال معظم عامنا الأول، تواصلنا في معظم عامنا الأول من خلال مشاركة الشرائح والرسومات والرسوم والخرائط المرسومة على ظهر المظاريف - كان هو استثنائيًا ومتواضعًا. وبمرور الوقت، تعلمنا جميعًا التواصل مع بعضنا البعض بلغة جامعة دلهي الفصحى - وهي مزيج من الإنجليزية والهندية، والتي كانت لغة أول نص سينمائي بعنوان فيما تعطي آني تلك الأشياء، و الذي تدور أحداثه في مدرسة هندسة معمارية خيالية خلال حقبة السبعينيات التي كان المدخنون يدخنون فيها ويرتدون ملابس داخلية من نوع "البوت". كان "آني" هو الاسم المستعار للطالب أناند جروفر الذي يعيد السنة النهائية للمرة الرابعة. "تعطي تلك الأشياء" كان يعني "القيام بعمله أو عملها المعتاد". في حالة آني، كان ذلك يعني الترويج لأطروحته المدللة حول إحياء الإقتصاد الريفي وعكس مسار الهجرة من الريف إلى الحضر من خلال زراعة أشجار الفاكهة على جانبي مئات الآلاف من الأميال من خطوط السكك الحديدية في الهند. لماذا خطوط السكك الحديدية؟ لأن "جنرال جانتا" (الناس العاديون) "يتغوطون بالقرب من خطوط السكك الحديدية على أي حال. الفيلم من إخراج برادب كريشن، وقد تم إنتاج الفيلم الذي لم تخصيص ميزانية له بتكلفة لا بد أن تكون تكلفة ألواح الكلابات الاحتياطية لفيلم متواضع من أفلام هوليوود، تضمن الكتيب الدعائي للفيلم (الذي لم يكن أحد مهتمًا به حقًا) الاقتباسات التالية:

"سيتعين عليك تغيير العنوان، لأنه "Giving It It Those Ones" لا يعني أي شيء باللغة الإنجليزية.

-ديريك مالكولم من صحيفة الغارديان، استيقظ فجأة في منتصف الفيلم.

"من الواضح يا سيد مالكولم، من الواضح أنك في إنجلترا لا تتحدث الإنجليزية بعد الآن."

-أروناتي روي، في وقت لاحق، متمنية لو أنها فكرت في ذلك في وقت سابق.

عُرض الفيلم مرة واحدة فقط، في وقت متأخر من الليل على تلفزيون دوردارشان الحكومي. وقد فاز الفيلم بجائزتين وطنيتين. إحداهما لأفضل سيناريو والأخرى، وهي جائزتي المفضلة على الإطلاق، جائزة أفضل فيلم بلغات أخرى غير تلك المحددة في الجدول الثامن من الدستور الهندي. (يجب أن أقول هنا أننا في عام 2015، أعدنا الجائزتين كجزء من احتجاج بدأه الكتّاب وصناع الأفلام ضد ما رأيناه تواطؤ الحكومة الحالية في سلسلة من الاغتيالات التي طالت الكتاب والمفكرين العقلانيين، وكذلك الإعدام خارج نطاق القانون في وضح النهار للمسلمين والداليت على يد عصابات من الحراس. لم يساعدنا ذلك، لا تزال عمليات الإعدام خارج نطاق القانون مستمرة، وقد نفدت الجوائز الوطنية التي نيلها، ولم يعد هناك مجال للعودة).

لقطة دعائية من فيلم "فيما تعطي آني تلك الأشياء" -

: أروندااتي روي في دور رادها وروشان سيث في دور يامدوت

علمتني كتابة السيناريو - كتبت سيناريوهين- و كتابة الحوار. وعلمتني الإقتصاد.

لكن بعد ذلك بدأت أتوق إلى الإفراط. كنت أتوق للكتابة عن المناظر الطبيعية في طفولتي، عن الناس في أيمنيم، عن النهر الذي كان يتدفق عبرها، والأشجار التي تنحني فيها، والقمر والسماء والأسماك والأغاني وبيت التاريخ والرعب المجهول الذي كان يتربص بي. لم أستطع تحمل فكرة كتابة شيء يبدأ بالمشهد 1. امتداد اليوم الى النهر. أردت أن أكتب كتابًا مرئيًا عنيدًا لكن غير قابل للتصوير. تحول هذا الكتاب إلى كتاب "إله الأشياء الصغيرة". لقد كتبته باللغة لكنني تخيلته باللغة الإنجليزية وكذلك المالايالامية، حيثُ تتصادم المناظر الطبيعية واللغات في رأسّي التوأم استابين وراحيل البالغين من العمر سبع سنوات، وتتحول إلى شيء خاص بهما. لذا، على سبيل المثال، عندما توبخ والدتهما "أمو" التوأم وتخبرهما أنهما إذا عصياها في أي وقت في الأماكن العامة فسوف ترسلهما إلى مكان ما حيث يتعلمون "حسن التصرف" - فإن البئر هي التي تقفز إلى ذهنهما. البئر العميقة المبطنة بالطحالب التي تجدها في مجمعات العديد من المنازل في كيرالا، مع بكرة ودلو وحبل، البئر التي يتم تحذير الأطفال بصرامة أن يبتعدوا عنها حتى يكبروا بما يكفي لسحب الماء. ماذا يمكن أن يكون بئر جولي؟ بئر بها أناس سعداء. لكن الناس في البئر؟ يجب أن يكونوا موتى بالطبع. لذا، في خيال إستا وراحيل، يصبح بئر جولي في خيال إستا وراحيل بئرًا مليئًا بالموتى الضاحكين، حيثُ يتم إرسال الأطفال إليه ليتعلموا حسن التصرف. الرواية بأكملها مبنية حول أشخاص، صغارًا وكبارًا، صغارًا وكبارًا، يعرفون الإنجليزية ويعرفون المالايالامية، كلهم يتصارعون ويتصارعون ويرقصون ويبتهجون باللغة.

بالنسبة لي، أو بالنسبة لمعظم الكتاب المعاصرين الذين يعملون في هذه المجالات، لا يمكن أن تكون اللغة أمرًا مفروغًا منه. يجب أن تُصنع، يجب أن تُطبخ، وأن تقدم مطبوخة على مْهل.

لم أشعر بتدفق الدم في عروقي بحرية أكبر إلا بعد كتابة "إله الأشياء الصغيرة". لقد كان ارتياحًا لا يمكن تصوره، أن أكون قد وجدت أخيرًا لغة تشبه لغتي. لغة أستطيع أن أكتب بها بالطريقة التي أفكر بها، لغة حررتني، لم يدم الأرتياح طويلاً. فكما عرف إستا دائمًا، يمكن أن تتغير الأمور في يوم واحد.

"كان البيت القديم على التلة يرتدي سقفه الجملوني الحاد المسحوب على أذنيه مثل قبعة منخفضة..." إله الأشياء الصغيرة - تصوير دايانيتا سينغ

بعد أقل من عام من نشر كتاب "إله الأشياء الصغيرة"، في مايو 1998، وصلت حكومة قومية هندوسية إلى السلطة. وكان أول شيء فعلته هو إجراء سلسلة من التجارب النووية. شيء ما تشنج، تغير شيء ما،كان الأمر يتعلق باللغة مرة أخرى. ليس اللغة الخاصة للكاتب، بل اللغة العامة للبلد، وتخيلها العام لنفسها. فجأة أصبحت الأشياء التي كان من غير المعقول قولها في العلن مقبولة، مقبولة رسميًا. وتدفق الفخر الوطني الفيروسي، الذي كان له علاقة بالكراهية أكثر من الحب، مثل الحمم البغيضة في الشوارع. بعد أن استئت من الاحتفالات حتى في أكثر الجهات غير المتوقعة، كتبتُ أول مقال سياسي لي بعنوان "نهاية الخيال". تغيرت لغتي أيضًا، لم تكن مطبوخة على مهل، لم تكن لغة سرية، لغة كتابة الروايات، كانت سريعة وعاجلة وعلنية، وكانت لغة إنجليزية مباشرة.

عند إعادة قراءة كتاب "نهاية الخيال" الآن، من المثير للقلق أن نرى كيف كانت العلامات التحذيرية واضحة لأي شخص، أي شخص تقريبًا، يهتم بالالتفات إليها:

لقد قيل لنا مرارًا وتكرارًا: "هذه ليست مجرد اختبارات نووية، بل هي اختبارات قومية".

لقد تم التأكيد على ذلك مرارًا وتكرارًا. القنبلة هي الهند، الهند هي القنبلة، ليس فقط الهند، بل الهند الهندوسية. لذلك، احذروا، أي انتقاد لها ليس فقط معادٍ للقومية، بل معادٍ للهندوسية. (بالطبع، في باكستان القنبلة إسلامية، بخلاف ذلك، من الناحية السياسية، تنطبق نفس الفيزياء). هذه إحدى المزايا غير المتوقعة لامتلاك قنبلة نووية، لا يمكن للحكومة استخدامها لتهديد العدو فحسب، بل يمكنها استخدامها لإعلان الحرب على شعبها.

لماذا يبدو كل ذلك مألوفًا جدًا؟ هل لأنه، حتى وأنت تشاهد، يتلاشى الواقع ويندفع بسلاسة إلى الأمام في صور صامتة بالأبيض والأسود من الأفلام القديمة - مشاهد لأناس يُطاردون من حياتهم، ويُجمعون ويُساقون إلى معسكرات؟ مذبحة وفوضى وأرتال لا نهاية لها من الناس المحطمين الذين يشقون طريقهم إلى المجهول؟ لماذا لا توجد موسيقى تصويرية؟ لماذا القاعة هادئة جدًا؟ هل شاهدت الكثير من الأفلام؟ هل أنا مجنونة؟ أم أنا محقة؟.

جاءت الفوضى، في 7أكتوبر2001 ، أي بعد ثلاثة أسابيع من هجمات 11) 2001سبتمبر2001)، قام حزب بهاراتيا جاناتا، الذي كان يتولى السلطة في ولاية غوجارات آنذاك، بعزل رئيس وزرائها المنتخب، كيشوبهاي باتيل، وعين مكانه ناريندرا مودي، النجم الصاعد في حزب راديكال رايسلاند رايسلاند RSS. وفي فبراير ،2002 وفي عملية حرق متعمد، أُحرق ثمانية وستون حاجًا هندوسيًا حتى الموت في قطار توقف في محطة غودهرا، وهي محطة للسكك الحديدية في ولاية غوجارات. وقد تم تحميل المسلمين المحليين المسؤولية. وعلى سبيل "الانتقام"، ذُبح أكثر من ألف مسلم على يد الغوغائيين الهندوس في وضح النهار في مدن وقرى غوجارات. وطُرد أكثر من مائة ألف مسلم من منازلهم وتم تجميعهم في مخيمات اللاجئين. لم تكن بأي حال من الأحوال أول مذبحة لأفراد أقلية في الهند ما بعد الاستقلال، ولكنها كانت الأولى التي تم بثها على الهواء مباشرة في منازلنا. الأولى التي كانت، بشكل من الأشكال، "مملوكة" بكل فخر، كنتُ مخطئة بشأن عدم وجود موسيقى تصويرية.

كان كتاب "نهاية الخيال" بداية عشرين عامًا من كتابة المقالات بالنسبة لي. تُرجمت كل مقالة تقريبًا على الفور إلى الهندية والمالايالامية والماراثية والأردية والبنجابية، وغالبًا دون علمي. وبينما كنا نراقب بذهول شديد، كانت الأصولية الدينية وأصولية السوق الحرة الجامحة، التي أُطلق لها العنان في أوائل التسعينيات، تتراقصان يدًا بيد مثل العشاق، وتغيران المشهد من حولنا بسرعة كانت مبهجة للبعض ومدمرة للبعض الآخر. كانت مشاريع البنية التحتية الضخمة تزيح مئات الآلاف من فقراء الريف، وتضعهم على غير هدى في عالم لا يبدو أنه قادر - أو ببساطة لا يريد أن يراهم. كان الأمر كما لو أن المدينة والريف لم يعودا قادرين على التواصل مع بعضهما البعض. لم يكن للأمر علاقة باللغة، ولكن كل شيء كان له علاقة بالترجمة. على سبيل المثال، بدأ القضاة الجالسون في المحكمة العليا غير قادرين على فهم أن علاقة الشخص الذي ينتمي إلى قبيلة من السكان الأصليين بالأرض لا يمكن ترجمتها ببساطة إلى المال. (تم استدعائي بتهمة ازدراء المحكمة لقولي، من بين أمور أخرى، إن دفع تعويضات نقدية لأهالي أديفاسي، وهم من السكان الأصليين، عن أراضيهم يشبه دفع رواتب قضاة المحكمة العليا في أكياس الأسمدة). على مر السنين، فتحت المقالات أمامي عوالم سرية - وهي أفضل نوع من الملوكية التي يمكن أن يطلبها أي كاتب. وبينما كنت أسافر، واجهت لغات وقصصًا وأشخاصًا وسعتني طرق تفكيرهم بطرق لم أكن أتخيلها أبدًا.

في مكان ما على طول الطريق، بدأ الطهي البطيء مرة أخرى. بدأ الناس يزورونني، أصبحت زياراتهم أكثر تواترًا، ثم أصبحت أطول، وفي نهاية المطاف، وبكل وقاحة، انتقلوا للعيش معي: جاءت أنّجُمْ، وهي متحدثة باللغة الأردية من دلهي القديمة، مع ابنتها زينب بالتبني، وكلب مقتضب غائم يدعى بيرو. ظهر شاب أطلق على نفسه اسم صدام حسين على حصان أبيض عرّف نفسه بأنه بايال. قال إن إسمه الحقيقي هو دياشاند وإنه من التشامار، وهو سلّاخ من جاججار في هاريانا. أخبرني قصة مروعة عما حدث لوالده. كان يتحدث بنوع من اللغة الميوتي-الراجاستانية التي وجدت صعوبة في فهمها. أراني مقطع فيديو لإعدام صدام حسين، رئيس العراق، كان يحتفظ به على هاتفه المحمول. وقال إن شجاعة صدام حسين في لحظة موته، حتى لو كان نذلًا، هي التي جعلت دياتشاند يعتنق الإسلام ويتخذ إسم صدام حسين. لم يكن لدي أي فكرة عن العلاقة بين الفيديو ووالده.

انزلق رجل نحيف للغاية وذراعه اليمنى في جبيرة من الجبس وأكمام قميصه ترفرف على جانبه مثل الظل. رفض كل عروض الطعام والشراب، سلمني الرجل ورقة مكتوب عليها أسمي الكامل: الدكتور آزاد بهارتيا. (الترجمة: الهندي الحر)، عنوان منزلي: بالقرب من محطة لاكي ساراي للسكك الحديدية، لاكي ساراي باستي، كوكار، بيهار، عنواني الحالي: جانتار مانتار، نيودلهي، مؤهلاتي ماجستير في اللغة الهندية، وماجستير في اللغة الأردية (الدرجة الأولى)، وبكالوريوس في التاريخ، ودورة ابتدائية أساسية في اللغة البنجابية، وماجستير في البنجابية (لكنه رسب)، ودكتوراه (قيد الانتظار)، جامعة دلهي (مقارنة الأديان والدراسات البوذية)، محاضر, إنتركوليدج، غازي آباد، باحث مشارك، جامعة جواهر لال نهرو، نيودلهي، عضو مؤسس فيشوا ساماجوادي سثابانا (منتدى الشعب العالمي) والحزب الاشتراكي الديمقراطي الهندي.

عرضتُ عليه سيجارة. فخرج ليدخنها، ولم يعد إلا بعد بضعة أسابيع. كانت تلك بداية انجراف الدكتور بهاراتيا داخل وخارج منزلي. وأستمر ذلك حتى يومنا هذا. القادم التالي كان عكس التائه. كان بيبلاب داسغوبتا، من عالم اللغة الإنجليزية، ضابطًا في أجهزة الاستخبارات النخبوية المتمركزة حاليًا في كابول. طلب مني أن أناديه بما كان يناديه به أصدقاؤه - غارسون هوبارت - وهو اسم الشخصية التي لعبها في مسرحية جامعية. وصل ومعه زجاجة ويسكي باهظة الثمن كان يشرب منها بأنتظام. جلس إلى طاولتي، و بدون أن يستأذن مني، أستخدم قلمي ليبدأ في كتابة شيء ما، ولم يرفع بصره عنه أبداً، إلا أنه كان ينطق بين الحين والآخر الاسم اللاتيني لأحد الطيور كما لو كان يدقق في التهجئة من خلال نطقه بصوت عالي. وخطر لي فيما بعد أنه ربما كان يفعل ذلك ليزعج المترجمين المستقبليين الذين لم يكن التصنيف العلمي للطيور والأشجار بلغاتهم، مع أسماء أجناسها وأنواعها التي تحدد كل منها على أنها فريدة من نوعها. تغيرت تعابير وجه هوبارت - في الواقع، تغير كل شيء فيه تقريبًا - عندما رن جرس الباب، ووجدت رجلًا وامرأة يقفان في الخارج. اتضح أن المرأة هي مستأجرة هوبارت، والتي يبدو أنها كانت مفقودة. كان اسمها تيلوتاما، والرجل الذي كان معها هو موسى، عشيقها الكشميري الذي بدا أنه يعرف هوبارت أيضًا. جاءا يحملان كراتين من الأوراق والملفات وأبراجًا من الوثائق المغبرة. وضعت بعض الأوراق على الثلاجة وثبّتها بمغناطيس. كانت قائمة كلمات، معجم مرتب أبجديًا:

الأبجدية الكشميرية-الإنجليزية الكشميرية

أ: آزادي/الجيش/الجيش/الله/أمريكا/هجوم//ذخيرة/كمين/كمين/أتانكوادي/قانون القوات المسلحة للقوى الخاصة/هيمنة المنطقة/البدر/المنصور/الجهاد/الأفغاني/امارناث ياترا.

ب: قوات حرس الحدود/قوات حرس الحدود/الجيش/قوات حرس الحدود/الجيش/قوات حرس الحدود/المعابر
الحدودية/المصيدة/المخبأ/المخبأ/المخبأ/المخبأ/المخبأ/المخبأ/المخبأ/المخبأ/المخبأ/ا لمخبأ/المخبأ/المخبأ/المخبأ.

ج: عبر الحدود/معبر حدودي/معسكر/مدني/مدني/مخفر/مدني/مخزن/مخزن تجوال/مطاردة/تطويق وتفتيش/قوات التدخل السريع/مركز تفتيش/مركز تفتيش/مكافحة التمرد/مكافحة التمرد/مكافحة التمرد/مكافحة التجسس/مكافحة التجسس/مكافحة التجسس/مطاردة وقتل/قتل تحت الحراسة/تعويض/استسلام/أسلاك شائكة/متعاون.

د: مختفٍ/متحدث باسم الدفاع/صليب مزدوج/عميل مزدوج/عميل مزدوج/قانون المناطق المضطربة/جثة ميتة.

ومضت لتغطي كل الحروف الأبجدية الإنجليزية، وصولًا إلى وعندما سألتها عن الغرض من ذلك، قالت إنها لمساعدة السياح الهنود الأبرياء في كشمير على التواصل بشكل أفضل مع السكان المحليين. لم تظهر عليها أي علامات سخرية أو تهكم. لم يقل موسى شيئًا. لقد ذاب في المحيط بسرعة لدرجة أنني نسيت أنه كان هناك.

بعد فترة من الزمن، جاء زوج تيلوتاما السابق، ناغاراج هاريهاران، يبحث عنها لكنه تظاهر بأنه لا يعرفها. لسبب ما، كان قد أحضر ملف حماته مريم إيبي الطبي السمين من مستشفى كوشين. لقد أطلعني عليه، على الرغم من أنني أوضحت له أنني لست مهتمة بملفات الدم ومخططات تشبع الأكسجين لغرباء تمامًا. ولم أتمكن من رؤية الملاحظات التي تحتوي على هلوسات مريم إيبي في وحدة العناية المركزة إلا في وقت لاحق. لم أكن أتخيل أنك إذا درست هلوسات الناس لفترة طويلة بما فيه الكفاية، فإنها تخبرك بأكثر مما يمكن أن تخبرك به مجلدات من المحادثات الواعية. وصل الرائد أمريك سينغ، وهو ضابط طويل القامة من السيخ في الجيش الهندي، نافيًا العديد من عمليات القتل خارج نطاق القضاء التي لم أتهمه بها حتى، وأصر على أنه كان يُصنع ما أسماه "عنزة هاربة". وبمجرد أن التقط الأجواء غير الاتهامية عمومًا في محيطه، بدأ يتباهى بعملياته في مكافحة التجسس وكيف أنه كان يتنكر في هيئة هندوسي أو سيخي أو مسلم باكستاني يتحدث البنجابية، حسب ما تتطلبه العملية السرية المعينة التي تكلفه بها المؤلفة.

ظهرت طفلة رضيعة على عتبة الباب، بدون مرافق. تحركت أنجم بسرعة مذهلة وانقضت عليها ولم تسمح لأي شخص آخر بالاقتراب منها لمدة أسبوعين على الأقل. وصلت رسالة تم تسليمها باليد من غابات باستار. كانت مكتوبة بخط يد صغير وضيق. باللغة الإنجليزية، على حد علمي، كانت الرسالة موجهة إلى الدكتور آزاد بهاراتيا، الذي لسبب ما، قرأها بصوت عالي لأنجم، وترجمها إلى اللغة الأردية على عجل: عزيزي الرفيق آزاد بهاراتيا غارو, أكتبُ إليك هذه الرسالة لأنني خلال الأيام الثلاثة التي قضيتها في جانتار مانتار راقبتك بعناية. إذا كان أي شخص يعرف أين طفلي الآن، أعتقد أنه أنت فقط. أنا امرأة تيلوجية وآسفة لأنني لا أعرف الهندية. لغتي الإنجليزية ليست جيدة أيضًا آسفة لذلك. أنا ريفاتي، أعمل بدوام كامل مع الحزب الشيوعي الهندي (الماوي). عندما تستلمون هذه الرسالة سأكون قد قتلت بالفعل...

لقد أصبح منزلي عبارة عن بلدية وكونفدرالية لغات. وبمرور الوقت، تعلمنا جميعًا نحن زملاء المنزل التحدث مع بعضنا البعض وترجمة بعضنا البعض.

كانت الوصفة الجديدة للطبخ البطيء تنطوي على مخاطرة كبيرة. كان عليّ أن أرمي لغة "إله الأشياء الصغيرة" من فوق مبنى عالي جدًا. ثم النزول (بإستخدام السلالم) لجمع القطع المحطمة. وهكذا ولدت وزارة السعادة القصوى.

ليس من الضروري لقراء كتاب "وزارة السعادة القصوى" أن يعرفوا أو يفهموا خريطة اللغات المعقدة التي تقوم عليها. ولو كان الأمر كذلك، ولو أحتاج القراء إلى دليل ميداني لفهم الكتاب بشكل صحيح، لاعتبرت نفسي فاشلة، أما أن أراه في المكتبات جنبًا إلى جنب مع روايات الخيال الأدبي وروايات الإثارة السياسية فلا يمنحني سوى المتعة. إن المتعة والألعاب مع خريطة اللغات هي مجرد طبقة إضافية من المتعة والألعاب. في الحقيقة، يمكن أن تصبح خريطة لغات الوزارة وتواريخها المتشابكة كتابًا كبيرًا في حد ذاته. لذا، كل ما يمكنني فعله الآن، فقط كتوضيح لما أعنيه، هو الحفر تحت سطح الفصول القليلة الأولى. سأبدأ بالجملة الافتتاحية : عاشت في المقبرة مثل الشجرة.

"هي أنجم. وهي الآن في منتصف العمر، وقد غادرت منزلها في الخواب جاه (بيت الأحلام) حيثُ عاشت لسنوات مع مجموعة من أمثالها. تقع مقبرة المسلمين حيثُ تعيش الآن بالقرب من مدينة دلهي المسورة. تبدأ المرة الأولى التي تعطينا فيها تلميحًا عن هويتها الحقيقية عند تقاطع بين لغتين. شرطي المرور ليس سوى ويليام شكسبير نفسه.

منذ فترة طويلة أخبرها رجل يعرف اللغة الإنجليزية أن إسمها مكتوب بالعكس (باللغة الإنجليزية) كان يتهجى مجنون. و قال إنه في النسخة الإنجليزية من قصة ليلى والمجنون، قال إن إسم المجنون كان روميو وليلى جولييت. وجدت ذلك مضحكًا للغاية. وسألت: "هل تعني أنني صنعت من قصتهما؟ ماذا سيفعلون عندما يكتشفون أن ليلى قد تكون في الواقع مجنون وروميو كان في الحقيقة جولييت؟ في المرة التالية التي رآها فيها الرجل الذي كان يعرف اللغة الإنجليزية قال إنه أخطأ. كان إسمها مكتوبًا بالعكس سيكون مجنّة، وهو ليس إسمًا ولا يعني شيئًا على الإطلاق. فقالت له: "لا يهم. أنا كلهنّ، أنا روميو وجولييت، أنا ليلى ومجنّة. ومجنا، لم لا؟ من قال أن أسمي أنجُم؟ أنا لستُ أنجم، أنا أنجمان. أنا أنجُم، أنا مُجَمِّع. من الجميع ولا أحد، من كل شيء ولا شيء. هل هناك أحد آخر تودين دعوته؟ الجميع مدعوون". قال الرجل الذي كان يعرف اللغة الإنجليزية إنه كان ذكاءً منها أن تأتي بهذه الفكرة. قال إنه لم يكن ليفكر في ذلك بنفسه. قالت: "كيف أمكنك أن تفعل ذلك وأنت تتقن الأردية؟ ماذا تظن؟ هل اللغة الإنجليزية تجعلك ذكيًا تلقائيًا؟.

ولدت أنجُم لأبوين مسلمين شيعيين في دلهي القديمة، في السنوات التي تلت الاستقلال مباشرة. والدها، مُلاقات علي، الذي يعود نسب عائلته مباشرةً إلى الإمبراطور المغولي شانجيز خان، هو حكيم، وهو طبيب أعشاب يعمل لدى العائلة التي تصنع الشربة الأسطورية "روح أفزا"، وهي كلمة فارسية تعني "إكسير الروح". تكمّل والدتها، جهانارا بيغوم، دخل الأسرة من خلال خياطة قبعات غاندي البيضاء التي توردها للتجار الهندوس في شاندني تشوك. وهي بالفعل أم لثلاث فتيات عندما ولدت أنجوم. في الفصل الثاني، "الخواب جاه"، نشهد ولادة أنجُم. وبالإضافة إلى والدتها والقابلة، تحضر لغتها الأم أيضًا. ووجدت أنجُم، هكذا قالت القابلة أحلام باجي، القابلة التي ولدتها ووضعتها بين ذراعي أمها ملفوفة في شالين، "إنه صبي". وبالنظر إلى الظروف، كان خطأها مفهومًا...

... في صباح اليوم التالي، عندما أشرقت الشمس وكانت الغرفة لطيفة ودافئة، قامت بفك قماط أفتاب الصغير. استكشفت جسده الصغير - عيناه وأنفه ورأسه ورقبته وإبطيه وأصابع قدميه - بسعادة غامرة غير متسرعة. كان ذلك عندما اكتشفت، وهي تعشش تحت أجزائه الذكورية، جزءًا صغيرًا غير مشكّل، ولكنه بلا شك جزء أنثوي. هل من الممكن أن تشعر الأم بالرعب من طفلها؟ كانت جهانارا بيجوم كذلك في اللغة الأوردية، اللغة الوحيدة التي كانت تعرفها، كان لكل الأشياء، ليس فقط الأشياء الحية، بل كل الأشياء - السجاد والملابس والكتب والأقلام والآلات الموسيقية - جنس. كل شيء إما مذكر أو مؤنث، رجل أو امرأة. كل شيء باستثناء طفلها، نعم بالطبع كانت تعرف أن هناك كلمة لمن هم مثله - هيجرا، كلمتان في الواقع، هيجرا و وكنار، لكن كلمتين لا تصنعان لغة، هل كان من الممكن العيش خارج اللغة؟ بطبيعة الحال، لم يخاطبها هذا السؤال بكلمات، أو كجملة واحدة واضحة. لقد خاطبها كصوت عواء جنيني بلا صوت.

أن تعيش خارج اللغة - بالنسبة لعائلة تنغمس حياتها بشكل معقد، مهووس باللغة، هي الأزمة التي تخلقها ولادة أنجوم. في السنوات القليلة الأولى، تمكنت جهانارا بيغوم من الحفاظ على سرها، ولكن بعد ذلك يأتي الوقت الذي تضطر فيه إلى إخبار زوجها، ملاقات علي رجل شغفه الحقيقي هو الشعر الأردية والفارسية، لديه مخزون هائل من الأشعار، ويستطيع أن ينتج شعرًا لكل مناسبة وكل مزاج وكل تحول دقيق في المناخ السياسي. ويعتقد أن الشعر يمكن أن يعالج، أو على الأقل يقطع شوطًا طويلًا نحو العلاج، كل مرض تقريبًا، ويصف الشعر لمرضاه بدلًا من الدواء. وعندما يسمع بالسر الذي أخفته زوجته عنه لسنوات عديدة، ولا يجد قصيدة يواسي بها نفسه، يفقد رباطة جأشه. يبذل قصارى جهده لتثبيت نفسه والتصالح مع الأمر، لكنه في النهاية لا يستطيع ذلك.

عندما نلتقي بـ"ملاقات علي" نحصل على أول تلميح لتاريخ اللغة المشحون الذي يعكس التاريخ المشحون لشبه القارة الهندية. فالتخبط الذي بلغ ذروته في نهاية المطاف في إراقة الدماء في التقسيم لم يقسم الأرض والشعب فحسب، بل اللغة أيضًا، جاعلًا جزءًا "مسلمًا" والآخر "هندوسيًا". هذا وصف لكيفية تعامل "ملاقات علي" مع الصحفيين الشباب السطحيين الذين يأتون من وقت لآخر لإجراء مقابلات معه لملاحق نهاية الأسبوع في مختلف الصحف حول الثقافة والمطبخ الغريبين في دلهي القديمة:

لطالما رحب ملاقات علي بالزائرين في غرفه الصغيرة بكياسة النبلاء الباهتة. كان يتحدث عن الماضي بكرامة ولكن دون حنين إلى الماضي، ووصف كيف أن أسلافه حكموا في القرن الثالث عشر إمبراطورية امتدت من البلدان التي تسمى الآن فيتنام وكوريا وصولًا إلى المجر والبلقان، من شمال سيبيريا إلى هضبة الدكن في الهند، وهي أكبر إمبراطورية عرفها العالم على الإطلاق، وغالبًا ما كان ينهي المقابلة بتلاوة بيت شعر أوردي لأحد شعرائه المفضلين، وهو مير تقي مير:

Jis sar ko ghurur aaji hai yaan taj-vari ka

Kal uss pe yahin shor hai phir nauhagari ka

الرأس الذي يتباهى اليوم بفخر بالتاج

سوف يغرق غدا، هنا، في رثاء

لم يستوعب معظم زواره، المبعوثون المتهورون من الطبقة الحاكمة الجديدة، الذين بالكاد يدركون غطرسة شبابهم، المعنى المتعدد الطبقات للبيت الذي عُرض عليهم كوجبة خفيفة يغسلها كوب بحجم الكشتبان من الشاي الحلو السميك. لقد فهموا بالطبع أنها كانت رثاءً لإمبراطورية سقطت وتقلصت حدودها الدولية إلى غيتو قذر تحيط به جدران مدينة قديمة مهدمة. ونعم، أدركوا أنها كانت أيضًا تعليقًا مؤسفًا على ظروف ملاقات علي الضيقة. ما غاب عنهم هو أن الكوبليه كان وجبة خفيفة ماكرة، سمبوسة خبيثة، تحذير مغلف بالنواح يقدمه بتواضع زائف رجل مثقف لديه إيمان مطلق بجهل مستمعيه باللغة الأردية، اللغة التي كانت، مثل معظم من يتحدثون بها، تتعرض تدريجياً إلى التغييب.

وُلدت اللغة المعروفة باسم الأوردية/الهندية/، وفي حقبة سابقة، في شوارع وبازارات شمال الهند. وتعد اللغة الخاري بولي، التي كانت يتم التحدث بها في دلهي وما حولها في دلهي وما يعرف الآن بغرب ولاية أوتار براديش الغربية، هي اللغة الأساسية التي أضيف إليها المعجم الفارسي. كانت الأردية، المكتوبة بالخط الفارسي العربي، يتحدث بها الهندوس والمسلمون في جميع أنحاء شمال الهند وهضبة الدكن. ولم تكن، كما يُصوَّر في كثير من الأحيان، لغة البلاط السامية، فقد كانت اللغة الفارسية في تلك الأيام. ولكنها لم تكن كذلك لغة الناس العاديين في كل مكان، كما يُعتقد في كثير من الأحيان، كانت الأردية لغة الشارع، ولكنها لم تكن بالضرورة اللغة التي يتحدث بها معظم الناس العاديين في بيوتهم الخاصة، ولا سيما النساء، وأصبحت لغة الأدب والشعر الرسمية للهندوس والمسلمين على حد سواء، اختلفت اللغة الأردية من منطقة إلى أخرى، وكان لكل منطقة كهنتها الكبار الذين يدّعون نسبها الحقيقي. والواقع أنها شهدت أزهى عصورها مع تلاشي الإمبراطورية المغولية.

غزل لأحد أوائل الشعراء الهنود الأوائل، وهو أمير خسرو (1253 - 1325). غزل بأبيات متناوبة بالفارسية والهندفية

بدأ تقسيم اللغة الأردية بشكل جدي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، بعد تمرد عام 1857، عندما لم تُعد الهند مجرد أصل من أصول شركة الهند الشرقية. فقد خُلع الإمبراطور المغولي الفخري بهادور شاه ظفر رسميًا، وخضعت الهند مباشرةً للحكم البريطاني. وتعرض المسلمون، الذين كان يُنظر إليهم على أنهم المحرضون الرئيسيون على التمرد، لعقاب شديد و عُوملوا بريبة كبيرة من قبل الإدارة البريطانية. وبدأت قواعد السلطة تتبدل، وتغيرت التسلسلات الهرمية، مما أطلق العنان للاستياء المكبوت والطاقات الجديدة التي بدأت تتسرب من بين الشقوق كالدخان. ومع بدء تحول الأفكار القديمة للحكم بالأمر الواقع والقوة العسكرية إلى أفكار حديثة للحكم التمثيلي، بدأت المجتمعات الإقطاعية القديمة في التكتل في "دوائر انتخابية" حديثة من أجل الاستفادة من السلطة وفرص العمل. ومن الواضح أنه كلما كبرت الدائرة الانتخابية، زاد النفوذ.

أصبحت الديموغرافيا ذات أهمية حيوية، لذا كان أول تعداد سكاني بريطاني مصدر قلق كبير. حوّل القادة "الهندوس" انتباههم إلى ملايين الأشخاص الذين ينتمون إلى الطوائف "المنبوذة". في الماضي، ومن أجل الهروب من وصمة العار الطبقية، تحول الملايين إلى الإسلام والسيخية والمسيحية. ولكن الآن كان ينظر إلى تحولهم الديني من قبل الطوائف المحظوظة على أنه كارثي، هرع الإصلاحيون لوقف النزيف، وأصبحت الهندوسية ديانة إنجيلية، سعت منظمات الهندوس المنتمين للطبقات المحظوظة، الذين كانوا يؤمنون إيمانًا عميقًا بالطبقة الإجتماعية ويعتقدون أنهم آريون منحدرون من العرق الأوروبي، إلى إبقاء المنبوذين والسكان الأصليين من القبائل في "الحظيرة الهندوسية" من خلال أداء مراسم "غار وابسي" (العودة إلى الوطن)، وهي مهزلة كان الهدف منها أن ترمز إلى "التطهير الروحي". من أجل تعريف نفسها بوضوح وتمييز نفسها عن غيرها من الدوائر المتنافسة، احتاجت الدائرة الهندوسية الناشئة حديثًا إلى رموز ثقافية - شيء ما لإثارة خيال المبشرين بها والمجندين المحتملين. أصبحت البقرة المقدسة والكتاب المقدس الوسيلتين المختارتين للتعبئة. فانتشرت جمعيات غاو راكشاك (حماية البقر)، وفي الوقت نفسه أثيرت المطالبة بقبول الديفاناغاري (ديفا كما في ديو/إله الآلهة - نص الآلهة) رسميًا كنص ثاني للأوردية. كان ديفاناغاري، المعروف في الأصل بإسم بابهني، هو خط البراهمة [حاشية] وقد أكد هذا التأكيد بادري نارين أوبادهيايا "بريمغان" في مؤتمر "هندي ساهيتيا ساميلان" في عام 1912. استشهد به ألوك راي في كتاب "القومية الهندية" (حيدر آباد: أورينت لونغمان، 2001)، وكانت مثل السنسكريتية محمية بغيرة ونقاء من "التأثير الملوث" للطبقات الدنيا التي حُرمت لقرون من الحق في تعلم السنسكريتية. ولكن تغير الزمن الآن يتطلب الترويج لها كخط أصلي "للشعب". في الواقع، كان النص الأكثر استخدامًا في ذلك الوقت هو النص الذي كان يُسمى كايثي. لكن الكايثي كان يستخدم من قبل الطوائف غير البراهمية مثل الكاياثا، الذين كان يُنظر إليهم على أنهم منحازون للمسلمين. وبشكل غير عادي، وفي غضون بضعة عقود، لم يتم التخلص من الكايثي فحسب، بل تم محوها من الذاكرة العامة. ألوك راي، القومية الهندية، ص 52.

لم يكن من السهل تحويل معركة من أجل نص جديد إلى حركة إجتماعية شعبية عندما كان معدل الإلمام بالقراءة والكتابة بين السكان في خانة الآحاد. كيف يمكن جعل الناس متحمسين لشيء لا يؤثر فيهم حقًا؟ كان الحل بسيطًا ولكنه بارع. كتب ألوك راي في كتابه المثير للاهتمام "القومية الهندية" بشيء من التفصيل عن كيفية اندماج التعبئة من أجل الديفاناغاري مع الدعوة إلى الوحدة الهندوسية وحماية البقر وغار وابسي. وقد اشتركت لجان ناغاري براشاراني سابهاس - لجان تعميم لغة ناغاري (أضيف جزء الإله "ديفا" لاحقًا) - مع مبشري غاو راكشاك وغار وابسي في نفس المكاتب والموظفين. وربما يفعلون ذلك اليوم أيضًا. كان للحملة من أجل الديفاناغارية أهداف فورية وعملية أيضًا، مثل الأهلية للوظائف في المكاتب الحكومية، والتي كانت قراءة اللغة الفارسية في ذلك الوقت مؤهلًا أساسيًا لها. وقد اكتسبت الحملة زخمًا سريعًا وعززتها مقاومة النخبة المسلمة لها، بما في ذلك القُادة المسلمون الذين كان لهم مصلحة في الوضع الراهن، مثل أشهر الإصلاحيين والمحدثين في ذلك الوقت، السير سيد أحمد خان.

هل تود أرستقراطيتنا أن يكون رجل من طبقة وضيعة ومن أصل تافه، على الرغم من أنه حاصل على درجة البكالوريوس أو الماجستير ولديه القدرة اللازمة، في منصب أعلى منهم وأن تكون له سلطة في وضع القوانين التي تؤثر على حياتهم وممتلكاتهم؟ أبدًا!

إنه لأمر عجيب كيف يمكن للأعداء الألداء أن يجدوا أرضية مشتركة في أسوأ التحيزات لدى بعضهم البعض. كما هو الحال دائمًا، كانت معركة بين النُخب القديمة والجديدة التي تضغط من أجل الحصول على الفرص، والجدد، كما هو الحال دائمًا، يخفون تطلعاتهم الخاصة على أنها إرادة "الشعب".

جاء أول انتصار لحركة الديفاناغاري في أبريل 1900، عندما أصدر السير أنتوني ماكدونيل، نائب حاكم الأقاليم الشمالية الغربية وأوده، أمرًا يسمح بإستخدام الخط الديفاناغاري بالإضافة إلى الخط الفارسي في محاكم الإقليم. وفي غضون أشهر، بدأت الإشارة إلى اللغتين الهندية والأردية كلغتين منفصلتين. وتدخل مفوضو اللغة على كلا الجانبين لتقسيم المياه وتقسيم الكلمة - السمكة. على الجانب "الهندي"، تم التخلص تدريجيًا من كل ما يُنظر إليه على أنه تأثير فارسي، وكذلك تأثير اللغات التي يُعتقد أنها لغات عامية غير متطورة. (وبطريقة ما أفلتت الكلمات الهندية والهندوسية والهندوستان من هذا الإقصاء.) وبدأت السنسكريتية تحل محل الفارسية. لكن اللغة السنسكريتية كانت لغة الطقوس والكتب المقدسة، لغة الكهنة ورجال الدين. ولم تكن مفرداتها مصاغة على سندان التجربة الإنسانية اليومية. لم تكن لغة الحب البشري أو الكدح أو التعب أو الضجر أو الشوق. لم تكن لغة الغناء أو شعر الناس العاديين. كان يمكن أن يكون ذلك بلغة الأوادي، والميثيلي، والبراج باشا، والبوجبوري ولهجات أخرى لا تعد ولا تحصى. ونادراً ما كان هناك مثال في التاريخ على محاولة استنزاف اللغة بدلاً من إثرائها. كان الأمر أشبه بالرغبة في استبدال المحيط بحوض أسماك.

ومع تصلب المواقف من كلا الجانبين، حتى أن الشرائع الأدبية أصبحت مُجزأة. فقد محى القانون "الأوردية" شعراء البهاكتي الساميين المناهضين للطبقة الاجتماعية مثل كبير وسرداس وميرزا وراسخان، وهو مسلم محب لكريشنا. ومحت الشريعة "الهندية" أعظم شعراء الأردية ميرزا غالب. (ويحدث شيء مماثل في عالم الموسيقى الكلاسيكية الهندوسية، على الرغم من أنه لم يكن من سوء حظها بعد أن تم تقسيمها رسميًا إلى موسيقى هندوسية كلاسيكية وموسيقى كلاسيكية إسلامية). لحسن الحظ، قاوم الكُتّاب والشعراء التقدميون، وهم الأفضل منهم، هذا الضغط. فقد أستمروا في إنتاج أدب وشعر ثري وعميق ومتنبه تمامًا لما كان يجري على لغتهم. ولكن تدريجيًا، ومع رحيل الجيل الأكبر سنًا، سيجد الجيل الأحدث، الذي يأتي تعليمه الرسمي من الكتب والكتب المدرسية الهندية "الجديدة" التي يجب أن توافق عليها اللجان الحكومية، صعوبة أكبر في استعادة إرث جميل لا يوصف، وهو حقهم.

لكل هذه الأسباب، عندما يتلو والد أنجُم، ملاقات علي، كوبيت المير الذي غلفه التحذير بالحداد، فإنه واثق من أن ضيوفه الشباب - الذين ينتمون إلى جيل الهندية "الجديدة" -لن يدركوا معناه الحقيقي. فهو يعلم أن ظروفه المادية الضيقة تعكس ظروف ضيوفه المادية الضيقة.

واليوم، لا يستطيع العديد من الجيل الأصغر سنًا من الناطقين بالأوردية في الهند قراءة النص الفارسي. ولا يمكنهم قراءة الأردية إلا بالخط الديفاناغاري. ولا يُنظر إلى اللغة الأردية كلغة مسلمة فحسب، بل يُنظر إليها كلغة باكستانية. وهو ما يجعلها لغة شبه إجرامية في نظر بعض الناس. ففي مارس 2017، مُنع عضوان مسلمان في الجمعية التشريعية لولاية أوتار براديش من أداء اليمين الدستورية باللغة الأردية. واتُهم عضو في مؤسسة بلدية أليغاره بتهمة "نية إيذاء المشاعر الدينية" لمحاولته القيام بالأمر نفسه.

وعلى الرغم من أن إنتصار اللغة الهندية كان إنتصارًا مدويًا، إلا أنه لا يبدو أنه قد هدأ تمامًا من مخاوف القائمين عليها. ربما يرجع ذلك إلى أن أعداءهم من الشعراء الموتى الذين اعتادوا على رفض الموت الحقيقي. كان الشعر أحد الموضوعات الفرعية لمذبحة غوجارات عام 2002. وهو ما تكتشفه أنجُم عندما تسافر إلى غوجارات مع ذاكر ميان الذي كان صديقًا لوالدها ملاقات علي.

واقترح عليها أن تزور أثناء وجودهما في أحمد آباد ضريح الولي الدخاني، الشاعر الأوردي الذي عاش في القرن السابع عشر، والمعروف بشاعر الحب، والذي كان ملاقات علي مولعًا به إلى حد كبير، وأن يلتمسا بركاته أيضًا. وقد ختموا خطط سفرهم بتلاوة بيت من شعره وهو أحد الأبيات المفضلة لدى ملاقات علي:

جيسي إيشق كا تير كاري لاجي

أوسي زينداجي كيوون نا بهاري لاجي

للمرء الذي ضربه قوس كيوبيد

تصبح الحياة مرهقة، أليس كذلك؟

بعد أيام قليلة انطلقوا بالقطار، أولاً إلى أجمر ثم إلى أحمد آباد ثم انقطعت أخبارهما.

لم يعارض أحد عندما اقترحت سعيدة)التي كانت تحب أنجم ولم تكن على علم تام بشكوك أنجم حولها(أن يتم إطفاء المسلسلات التلفزيونية وتشغيل الأخبار وتركها مفتوحة لعلهم يلتقطون بالصدفة الصغيرة خيطًا حول ما قد يكون حدث لأنجم وزاكر ميان. عندما صرخ مراسلو الأخبار التلفزيونية المتحمسون من مخيمات اللاجئين حيثُ يعيش الآن عشرات الآلاف من مسلمي غوجارات في خواب جاه، أطفأوا الصوت ومسحوا الخلفية على أمل أن يلمحوا أنجم وزاكير ميان وهما يصطفان للحصول على الطعام أو البطانيات أو متجمعين في خيمة. علموا بشكل عابر أن ضريح الوالي دخاني قد سُوي بالأرض وبُني فوقه طريق مزفت، مما أدى إلى محو كل علامة تدل على وجوده في أي وقت مضى.)لم تستطع الشرطة ولا الغوغاء ولا رئيس الوزراء فعل أي شيء حيال الناس الذين استمروا في ترك الزهور في وسط الطريق الجديد المزفلت حيث كان الضريح موجودًا. وعندما كانت الزهور تُسحق الزهور وتتحول إلى عجينة تحت عجلات السيارات السريعة، كانت تظهر زهور جديدة. وماذا يمكن لأي شخص أن يفعل حيال العلاقة بين معجون الزهور والشعر.(

لماذا يغضب غوغاء القرن الحادي والعشرين من شاعر عاش قبل أكثر من ثلاثمائة عام؟ كان الوالي دخاني، حكيم الدخان (الدكن)، شاعرًا من القرن السابع عشر وعُرف أيضًا باسم الوالي أورانجابادي والوالي الغوجاراتي. وقد كتب باللغة الدخانية الأردية، وهي لغة لم تكن مألوفة لشعراء البلاط في الشمال، الذين كتبوا في الغالب باللغة الفارسية في ذلك الوقت. وعلى الرغم من أنه كتب بالأردية، إلا أن والي دخاني كان أول شاعر في شبه القارة الهندية يقدم شعره في شكل ديوان - وهي مجموعة مرتبة رسميًا على الطريقة الفارسية حيث تُعرض القصائد بالترتيب الأبجدي في ثلاثة أقسام إلزامية: المثنوي (قصائد سردية)، والمرثية (قصائد رثاء في ذكرى استشهاد الحسين)، والقصيدة القصائد (تقليد إنشاد المديح للمحاربين). وقد إستحوذ ديوان الولي الدخاني على دائرة النخبة من الشعراء، الذين كتبوا جميعهم بالفارسية. وقد أصبح جسرًا ثقافيًا بين الشمال والجنوب، والأب المؤسس للشعر الأردوي.

كان يمكن لغوغاء العصر الحديث الذين دمروا ضريحه، وهم في غاية التعصب للعرقية، أن يقدّروا الولي الدخاني لأنه الرجل الذي أثر على الشعراء الذين كتبوا بالفارسية ليكتبوا بالأردية، وهو الذي حوّل كتابة الأردية إلى أدب رفيع. لأن اللغة الأوردية ليست شيئًا إن لم تكن لغة ولدت في شوارع هندوستان. ولكن، للأسف، ليست هذه هي القصة.

لم يكن تدمير قبر والي دخاني خلال مذبحة غوجارات عام 2002 الحادث الوحيد من نوعه. فخلال تلك الأسابيع نفسها، في مدينة بارودا، هاجمت مجموعة من الغوغاء قبر الأستاذ فائز خان، أحد أكثر المطربين البارعين في التقاليد الكلاسيكية الهندوستانية، وألحقت به أضرارًا. وقبل ذلك بسنوات عديدة، في أعمال شغب وقعت في السبعينيات، أحرق غوغاء منزل رسولان باي (المغني المفضل لدى غارسون هوبارت ،الشيء الوحيد الجيد الذي يمكن أن يقال عن هذا التقليد الغوغائي المعاصر هو أنه يفهم المخاطر التي يتعرض لها الفن. ولديه ذوق لا تشوبه شائبة.

سأنهي هذه المحاضرة الطويلة جدًا بملاحظة قصيرة عن الشعارات والمقولات في كتاب "وزارة السعادة القصوى."

تنجو أنجُم من مذبحة غوجارات لأن الغوغاء الذين وجدوها مستلقية فوق جثة ذاكر ميان متظاهرة بالموت، يعتقدون أن قتل الهيجرا يجلب الحظ السيئ. لذا فبدلاً من قتلها، يقفون فوقها ويجعلونها تردد شعاراتهم:

بهارات ماتا كي جاي! فاندي ماتارام!

لقد فعلت ذلك. تبكي وترتجف وترتجف وتذلّ بشكل يفوق أسوأ كوابيسها.

النصر لأمنا الهند! تحية للأم!

لقد تركوها حية غير مقتولة غير مصابة، غير مطوية ولا مكشوفة، هي وحدها، حتى ينعموا بالحظ السعيد.

حظ الجزار. هذا كل ما كانت عليه وكلما طال عمرها، كلما جلبت لهم المزيد من الحظ السعيد. إن بهارات وهندوستان والهند هي أسماء تُستخدم بالتبادل للإشارة إلى البلد الذي نعيش فيه. "أخاند بهارات" أي الهند غير المقسمة التي تضم أراضي كل من باكستان وبنغلاديش هي المثل الأعلى للقوميين الهندوس. هتاف بهارات ماتا كي جاي! (النصر للهند الأم) ينظر إليه الكثيرون على أنه أمر وطني وليس بالضرورة قومي هندوسي. وفي ظروف أقل تهوينًا، كانت أنجم ستصرخ بالتأكيد، بل وربما تضرب أولئك المثيرين للجدل وغير المتخيلين الذين يتساءلون كيف أن الملك بهاراتا الذي سميت مملكته بهارات أصبح ماتا (الأم)، ولماذا الهند وطن أم وليس وطن أب

الشعار الثاني الذي أُجبرت على ترديده، فاندي ماتارام، الذي يُترجم عادةً إلى "الحمد لكِ يا أمي"، هو من قصيدة للكاتب البنغالي الشهير بانكيم شاندرا شاتوبادياي التي تظهر في أناندامات، روايته عن تمرد السانياسي، التي نُشرت لأول مرة في ثمانينيات القرن التاسع عشر. وهي رواية كانت ولا تزال مفضلة إلى حد كبير لدى القوميين الهندوس لأنها خلقت نموذجًا للمحارب الهندوسي المثالي، المحارب الهندوسي الخيالي الذي يثور ضد مضطهديه المسلمين المنحطين. تُعد أناندامات مثالًا رائعًا على كيف يمكن للأدب في عملية سرده للماضي أن يصوغ المستقبل أيضًا. في القصيدة، يتم الخلط بين الوطن الأم والإلهة دورغا الهندوسية. إلا أن المقطعين الأولين من القصيدة أصبحا النشيد غير الرسمي للحركة الوطنية لأنهما لا يذكران سوى "الأم"، وهو ما يفسح المجال لتفسيرهما من قبل الهندوس والمسلمين على حد سواء على أنهما إشارة إلى الهند الأم. وعلى الرغم من أنها كانت نشيدًا محبوبًا للغاية أثناء النضال ضد الإستعمار البريطاني، إلا أنه في أجواء اليوم التي تتسم بنوع مختلف تمامًا من القومية، وهي قومية قسرية متنمرة و غالبًا ما يضطر الناس، المسلمون على وجه الخصوص، الذين لا يجهل الكثير منهم مصدر القصيدة، إلى ترديد "فاندي ماتارام" كشكل من أشكال الإذلال الشعائري. ومن المفارقات أن النسخة الحديثة من الأغنية لاقت رواجًا كبيرًا في التسعينيات على يد المغني الصوفي أ. ر. رحمن. وللأسف، أصبح الشعار الذي كان محبوبًا في السابق مثيرًا للجدل، نسخة بوليوودية من فاندي ماتارام من فيلم "أناند ماث" المقتبس من فيلم "أناند ماث. و ليس من الغريب أن يتم ترديد شعار بنغالي في الدول غير الناطقة بالبنغالية. فالشعارات في شبه القارة الهندية - سواء تم ترديدها من قبل الغوغاء أو المتظاهرين، من قبل اليمين أو اليسار، من قبل الناس في الأراضي الواقعة تحت الاحتلال العسكري، أو المحتجين ضد السدود الكبيرة - هي أداء موجه للخارج، ليسمعها بقية البلاد وبقية العالم، وبالتالي، في كثير من الأحيان، لا تكون باللغة الأم للسكان المحليين. في احتجاجات كشمير الضخمة في كشمير، ستسمع هتافات باللغة الأوردية وباللغة الإنجليزية، ونادرًا ما تكون باللغة الكشميرية. هتاف آزادي! آزادي! ("حرية !حرية!") باللغة الأوردية - الفارسية في الأصل - وربما يكون قد انتقل شرقًا من الثورة الإيرانية ليصبح الشعار المميز للنضال الكشميري من أجل الحرية، وكذلك، ويا للمفارقة، الحركة النسائية في الهند. في الطرف الآخر من البلاد، جنوبًا في ولاية كيرالا، نشأت على هدير مدوٍّ لشعار "إنكيلاب زند آباد! ("تحيا الثورة!") باللغة الأردية، وهي لغة لا يتحدثها السكان المحليون ولا يفهمونها. كان شعار الحزب الشيوعي الآخر هو "سوادندريام، جانادیباثیام، اشتراكية، زند آباد! ("حرية، ديمقراطية، اشتراكية، تحيا الاشتراكية!") أي السنسكريتية والمالايالامية والإنجليزية والأوردية في شعار واحد.

سأنتهي برحلة الشعارات من خلال وزارة السعادة القصوى.

بعد مرور شهرين على اختفاء أنجُم وزاكير ميان، وبعد أن بدأت عمليات القتل في غوجارات في التراجع، يذهب منصور، ابن زاكير ميان، إلى أحمد آباد للبحث عن والده. و كإجراء احترازي، يحلق لحيته على أمل أن يكون هندوسيًا، لا يجد والده، لكنه يجد أنجُم المذعورة، التي تم تسجيلها في قسم الرجال في مخيم للاجئين، مرتدية ملابس الرجال، وقد قصت شعرها، ويعيدها إلى الخواب جاه، وترفض أن تخبر أحدًا بما حدث لها، لكنها -وهي مسكونة بذكريات "كيف كان الرجال مطويين والنساء مكشوفات"- تأخذ زينب الصغيرة النائحة، ابنتها بالتبني، إلى الحلاق، وتقص شعرها وتلبسها ملابس الرجال. "في حالة قدوم غوجارات إلى دلهي". والاحتياط الآخر الذي تتخذه هو تعليم زينب ترديد تعويذة غاياتري السنسكريتية التي تقول إنها تعلمتها أثناء وجودها في المخيم في غوجارات. وتقول إن العديد من اللاجئين الآخرين تعلموها لأنهم كانوا يعتقدون أن بإمكانهم ترديدها في حالات الغوغاء لمحاولة الظهور بمظهر الهندوسي. لا تملك أنجوم ولا زينب أي فكرة عن معناها، لكن زينب ترددها بسعادة وهي ترتدي ملابسها للمدرسة وتطعم عنزتها الأليفة.

اللهم أنت واهب الحياة,

مزيل الألم والحزن

يا واهب السعادة

يا خالق الكون

اجعلنا نتلقى نورك السامي المدمر للذنوب,

يا من ترشد فكرنا إلى الاتجاه الصحيح.

تظهر تعويذة الغاياتري ثلاث مرات في كتاب "وزارة السعادة القصوى". المرة الأولى، كتعويذة ضد عنف الغوغاء، والمرة الثانية كمادة ترويجية في إعلان تجاري للخطوط الجوية البريطانية لجذب الزبائن من الطبقة الوسطى الجديدة والمتزايدة باطراد في الهند. والمرة الثالثة في مطعم للوجبات السريعة في أحد مراكز التسوق، لقد كبرت زينب الآن، وهي مخطوبة لصدام حسين، يحكي لهم صدام قصة كيف تعرض والده قبل سنوات للضرب حتى الموت على يد غوغاء خارج مركز للشرطة، يقول صدام إن المركز التجاري الذي كانوا فيه، كان بالضبط في المكان الذي كان فيه مركز الشرطة الآن، تقول زينب إنها تعرف صلاة هندوسية وتتلو تعويذة الغاياتري كبادرة حب لوالد زوجها المستقبلي (وكذلك الراحل).

هذه هي الطرق التي تم بها أخيرًا إضفاء الطابع المحلي على اللغة السنسكريتية.

بعد أشهر قليلة من عودة أنجم من الغوجرات، مدمرة تمامًا و مكسورة غير قادرة على مواصلة الإستمرار في عيش حياتها القديمة، إنتقلت إلى مقبرة قديمة حيث قامت بإنشاء منزل، بمرور السنوات بينما تتعافى تدريجيًا قامت ببناء نزل جنة للضيافة. عندما إنضم إليها صدام حسين قاموا معا بتوسيع أعمالها لتشمل خدمات الجنائز. وحسب ما تستدعيه المناسبة، تشمل الصلوات على الموتى الفاتحة، وإنشاد النشيد العالمي باللغة الهندية، وتلاوة من مسرحية هنري الخامس لشكسبير. باللغة الإنجليزية.

إذن، كيف يمكننا الإجابة على سؤال بابلو نيرودا الذي هو عنوان هذه المحاضرة؟

بأي لغة يهطل المطر فوق المدن المعذبة؟

سأقول، دون تردد : بلغة الترجمة.

رابط المقال بالإنجليزي:

https://raiot.in/in-what-language-does-rain-fall-over-tormented-cities/